# جدليةالمكـان الفنـي والواقعـي.

# *Artistic Place The Dialectic of the Realistic and*

**د.حكوم مريم***
**جامعة طاهري محمد بشار**
*hakemmeriem@yahoo.fr*

**د. العرابى محمد**
**جامعة طاهري محمد بشار**
*Larabi.mohamed@univ-bechar.dz*

تاريخ الاستلام: 2022/01/20 القبول:2022/03/15
تاريخ النشر:2022/05/13

ملخص:
**يتأسّس السردُ على الهُوّة الفاصلة لحدود الأمكنة الواقعيّة في النصّ، والأمكنة الداخليّة الشعوريّة العميقة في وجدان السارد، لتصبح الأمكنة الواقعيّة أداةً لتوثيق عرى الروحيّ المتأصّل فيها، وليست الأماكن مَواقعَ على خارطةٍ، بل معالم على رمزية تُمثّلُ هوية ووجودا وممارساتِ وعاداتِ مرتبطة في هذا المكان أو ذاك بتأثيرٍ منه. ويُعدُ المكانُ الفني مَخزنًا للمشاعر والأفكار العميقة، إذ تنشأ بين الإنسان والمكان الذي يعيش فيه علاقة متبادلة، فيؤثر أحدُهما على الآخر، فالمكان يحملُ في ثناياه دلالاتٌ تُعكس مما في الذاتِ الكاتبة أو في الذات الاجتماعيّة، لذلك يساهم في فهم للشخصيّات.**

**الكلمات المفتاحية: مكان، زمان، لغة، شخصية، جمالية، فني، واقعي، تأثير، تأثر.**

**Abstract** :
**The narration is based on the chasm separating the boundaries of the real places in the text, and the deep emotional inner places in the narrator's conscience, realistic places become a tool for documenting the deep-rooted spiritual bonds in them. Places are not locations on a map, rather, they are symbolic features that represent an identity, existence, practices, and customs associated with this or that place, influenced by it.The artistic space is a storehouse of deep feelings and thoughts, as a mutual relationship arises between man and the place in which he lives; the place carries in its folds connotations that reflect from what is in the writing self or in the social self, so it contributes to an understanding of the characters.**
***KeyWords***: Place, Time, Language, Personality, Artistic, Realism, Influence

*المؤلف المرسل

**1. مقدمة:**

يختلف المكان الواقعي عن المكان في العمل الفني، وإن بدا بينهما تطابق في الاسم أو الوصف، إلا أن المكان الفني يبقى صناعة لغوية من إبداع خيال الأديب حسب رؤيته وما تتطلبه أهداف التخييل وضروراته؛ فلا يتشكل إلا باللغة وعلاماتها، بينما المكان الواقعي مكان موجود خارج إطار الرواية أي في الواقع. وقد كان المكان – منذ القديم – هاجسا للشاعر العربي، كونه الملاذ في الشدة والرخاء، فيه سعادته، وشقاه، ومغامراته ؛ فكان طبيعيا أن يجسد ذلك كله فنيا ليحتل حيزا خاصا في معظم القصائد الشعرية القديمة، ولا تستثنى القصائد الحديثة من ذلك .

إن كان ذلك في الشعر، فهولا يقل أهمية في الرواية، كونه أحد عناصرها الفنية؛ ففيه تجرى الحوادث، وتتحرك الشخصيات، وأهم من ذلك كله، يمكن القول: إنه الفضاء الذي يحتوى كل العناصر الروائية، والمساعد على تطوير بناء الرواية.

لا نستطيع تحديد المكان الواقعي و بدايته، إلا أن ما هو أكيد أن ذلك يعود إلى بدء الخليقة، فالكون نفسه مكان واقعي، فهو يحاصرنا من الرحم إلى القبر، بل إلى العالم الآخر الذي يفوق مداركنا، غير أن المكان الواقعي قد لا يحدث فينا لذة جمالية، رغم براعته الطبيعية، وإن حاول الفنان محاكاتها فسيجد نفسه عاجزا، كما أن ذلك ليس دوره. فكيف للمكان الفني أن يحدث ذلك، وما سر لذته الجمالية وتأثيره، وما العلاقة بين الفني والواقعي والانسان، وبقية عناصر السرد.

**2.قلب النص:**

**1.2 المكان والإنسان:**

يشكل المكان عنصرا مهما في العمل القصصي، لأن "السرد من دون حيز لا يمكن أن تتم له هذه المواصفة" (مرتاض، 1998ديسمبر، صفحة 154)"، فلا يمكن أن ينشأ أدب خارج الحيز، "فكأن للمكان، حقا عبقريته. وكأن عبقرية الأدب، حقا حيزه. فكأن الحيز، هو الذي يجسد عبقرية الأدب" (مرتاض، 1998، صفحة 160)، فقد كان ولا يزال عنصرا مهما، لا يتم العمل الأدبي بدونه، حيث تتبدى هذه الأهمية من خلال طريقة الكاتب في التعامل معه فنيا مميطا اللثام عما يرمز إليه، "فالمكانية تذهب إلى أبعد من ذلك، وهي أكثر تحديدا. إنها تتصل بجوهر العمل الفني" ( باشلار، ،1992، صفحة 06)، فإن كانت الشخوص، والحدث، والزمان، واللغة ... تعد عناصر بناء العمل القصصي؛ فأهمية المكان ناتجة عن كونه يشكل الإطار الجغرافي الذي يشهد الأحداث ليغدو عنصرا مهما في بناء النص الإبداعي، إذ بدونه لا وجود لبقية العناصر الأخرى، " فالمكان لا يعيش منعزلاً عن باقي

عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية للسرد كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية، وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء داخل السرد" ( بحراوي، 1990، صفحة 26)،فهو أكثر جاذبية للمبدع، وأكثر تأثيرا في نفس المبدع. ولعل أول ما تلتقطه الذاكرة البصرية بعد أن تقع عليه العين المجردة، خلافا للزمن الذي يتصل بمدارك النفس، فالمكان ظاهر ملموس، أما الزمان خفي وغير ملموس.

لقد شغل المكان بال المبدع العربي منذ القدم، فاهتم الشاعر الجاهلي بالأمكنة من خلال وقوفه على الأطلال، وهي ظاهرة جلية في الأدب الجاهلي، إذ حيا الربع والقبر، ودعا لهما بالسقي؛ فقد أحب شعراء العرب أسماء الأماكن وكانوا "يكررونها في شعرهم كأنها أسماء الأحبة" ( صالح، ،1980، ، صفحة 21) ، لأن وجود الإنسان مرتبط بالمكان "فلا يمكن أن نتصور وجودا خارج المكان، فنحن محاطون بعدد من الأمكنة منذ لحظة الولادة، حتى وقت مغادرة الحياة، وحتى بعد الموت، فإن المؤمنين بخلود الروح على تباين معتقداتهم ومذاهبهم يفترضون للروح أمكنة تؤول إليها كالجنة والنار " (لشقر ، ،2006، صفحة 26). فمن غير المعقول ألا يكون للإنسان مكان يتعلق به، ولعل رحم الأم أول الأمكنة التي يرتبط بها في هذا الوجود، ثم مسقط رأسه، ثم باقي الأمكنة التي يعرفها عبر حله وترحاله إلى آخر مكان يحتله وهو القبر. هكذا يصبح المكان ظل الإنسان يؤثر كل منهما في الآخر.

لعب المكان بمختلف تجلياته دورا مهما في تكوين منظومة فكرية عند الإنسان، كما اتخذ دلالات مختلفة وفق شخصية الإنسان التي تحتل هذا المكان أو ذاك، يفر من بعض الأمكنة ، ويقترب من أخرى ، يحب هذه، ويكره تلك، هذه مقدسة ، وتلك مدنسة .

إن العلاقة التي تربط الإنسان بالمكان تجعله يضفي عليه شيئا من هُويته، كما أن المكان هو الآخر، لا يبقى سلبيا، كما برى محمد بدوي، إذ "الإنسان غريب في عالم من الأشياء الصامتة الفاقدة للحس"(لشقر،2006، ص26) ، فالمكان يوثق عرى الاتصال بالأرض ليصبح وعيه بالوجود والكون أكثر عمقا، وهذا "ما يؤكد حميمية العلاقة التي تربط بين " الإنسان " و"المكان " ومباشرتها وملازمتها لحركة الإنسان" (السيد إسماعيل، 2002، ط1، صفحة 13)، ويجعل العلاقة بينهما علاقة تأثير متبادلة. فالمكان يلعب دورا مهما في حياة الأفراد الذين يحتويهم؛ فهو يجمعهم ويقوي الروح القبلية والوطنية، ويقرب مفاهيمهم وعواطفهم إن لم يوحدوها. وكثيرا ما يوحدها عند الشدائد والنوازل؛ وبهذا يكون المكان رقما مهما في المنظومة الثقافية، "فهو يحمل

معاني وحقائق أبعد بكثير من حقيقته المادية الملموسة"(لشقر، 2006، ص31) ، وقد يتخلى المكان عن إهابه المادي إلا أنه يحيل على الكثير من الدلالات التي ترتبط بالمعطيات الثقافية لمن يعيشون في هذا المكان أو ذاك؛ فالثكنة تحيل على الانضباط والصرامة، والمقبرة تحيل على السكون الأبدي ، وعلى المصير المحتوم .

هكذا يغدو المكان فاعلا وباعثا على تحريك المدارك في المتلقى والباث؛ فلا البيت بيت، ولا الخيمة خيمة ، ولا السجن سجن... إنما هي أشكال هندسية كما يعرفها كل واحد، إلا أنها فنيا "حيز يغادر إطاره الهندسي ليصبح منطلق تأسيس مادة إدراك للفرد، فلا يمكنه أن يبقى محايدا، لا مباليا ذا خصوصية هندسية وزخرفية فحسب"( لشقر، 2006، ص31) ، فمن جمود وسكون إلى حركة ونطق من خلال التفاعل الفني، بعد أن يجرده من سماته المادية، ويشحنه ويحمله أبعادا فلسفية، أو يتخذ منه رمزا، وهذا ما يعطي الجامد قيمة جمالية تثري العمل الفني ، دون أن يقطع الصلة بين المكانين الروائي والواقعي مهما بلغت قوة المخيال الروائي .

لاشك أن المكان يؤثر في الإنسان ثقافيا، واقتصاديا ، واجتماعيا ، كما أن الإنسان أيضا يؤثر في المكان بما يحدثه فيه من تغيير، فالمكان ليس إلا الأرض والتاريخ، فإن كانت فلسطين ضاعت منا-مؤقتا- على مستوى الجغرافيا، إلا أنها لم تفارق إحساسنا و شعورنا؛ فلا يخلو بلد عربي أو إسلامي من شارع أو حي أو ساحة تحمل اسم فلسطين أو القدس، فليس من السهل فك الارتباط بين الأرض "المكان" والتاريخ، فما أن نذكر "سيدي فرج" إلا واستحضرت الذاكرة جحافل العدو الفرنسي، وهي تدنس بلادنا، وكذلك القادسية، أو اليرموك، لتعود نشوة الانتصار التي حققها وعاشها الأسلاف، كما تحمل بعض أسماء الأمكنة تاريخنا الحضاري بوجهيه المشرق والمظلم ، كالأندلس على سبيل المثال.

هكذا ترتبط الأمكنة أو الأحياز بتاريخنا، بماضينا، حلوة، ومرة، وترتبط الصورة الذهنية بالصورة المكانية إلى حد الالتحام، إذ يصبح الفصل بينهما مستحيلا؛ فكثيرة هي الأمكنة التي ارتبطت بمدلولات لا تحيد عنها؛ ففي المجال الديني ، يرتبط اليمين بالسعادة، على عكس الشمال الذي يرتبط بالشقاوة كما ورد في القرآن الكريم:

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضوض...وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم ﴾ ( سور ة الواقعة ،الآية 27-44)

إذا كانت هذه أهمية المكان وعلاقته بالإنسان، فهي كذلك للعمل الأدبي ، ف"حين يفتقد المكانية ، فهو يفقد خصوصيته ، بالتالي أصالته"(باشلار، 1996، ص38).

### 2.2 المكان في العمل الإبداعي:

لا يمكن للمبدع أن ينشئ مكانا فنيا منفصلا عن المكان الواقعي أو الأمكنة الطبيعية، مهما بلغت قوة خيال الفنان المبدع، إلا أننا نجد بعض عناصر الواقع في إبداعه؛ فلا مفر له من اللجوء إلى الطبيعة أو الواقع، ف"مجرد إحالة أحدهما إلى الآخر يجعلهما يتقاطعان عبر آلية الاتصال والانفصال بين الواقعي والمتخيل(صلاح، 1980، ص19)" ، فكثير من الأماكن التي وردت في "ألف ليلة و ليلة " لم تطأها قدم إنسان، هي أماكن خيالية، غير أنها مربوطة بالواقعي أو الطبيعي، حيث نجد فيها ماء أو أشجارا؛ لأن "الصورة المكانية مهما توغلت في جزر الخيال، فلا بد لها من مرجعية واقعية(لشقر، 2006، ص31) "، لتبقى الطبيعة أكبر ملهم ومعلم للفنان، يتخذ من عناصرها منطلق عمله الذي يسحر، ويفتن به القارئ، الأمر الذي لا يتأتى للطبيعة أو الواقع؛ فالمكان في العمل الأدبي قائم في خيال المتلقى، وليس في العالم الخارجي، فهو مكان تستثيره اللغة من خلال قدرتها على الإيحاء، ولذلك كان لابد من التمييز بين المكانين في كل من العالم الواقعي و العالم الفني.

قد يبدو الانفصال جليا بينهما، لكن ليس ثمة شك في الارتباط بينهما، فالمكان الفني ينتمي إلى العالم الداخلي للنفس البشرية، على عكس المكان الطبيعي أو الواقعي، ثم أنه ليس بالضرورة أن يكون المكان الفني هو نفسه المكان الواقعي الأرضي ، فقد يعكس الأول بعض ما في الثاني. وقد يعمد الفنان الأديب إلى تجريده من كل ما يمكن أن يُظهر حدوده على الواقع الأرضي، فيغدوا رمزا، فما ذكرت تفاصيله فهو مساحة أو مكان حقيقي جغرافي، أما الفني أو الأدبي، فهو ما لم تذكر تفاصيله و تحدد، و ترسم معالمه، فهو أوسع من أن يحدد، و إلا فقد عناصره الجمالية والخيالية، إنه عالم لا تحدده الحدود، عندما يستعين الروائي بوصف المكان أو تسميته، فهو لا يسعى إلى تصوير المكان الفني، وأي مطابقة بينهما، هي مطابقة غير صحيحة، وما استعانة الروائي بالتسمية أو الوصف إلا لإثارة خيال المتلقي.

وكثيرا ما ندهش لجمال بعض الأماكن الطبيعية (الخارجية) إلا أن هذه الدهشة لا ترتقي إلى ما أبدعه الإنسان الفنان، وإن كان الإنسان نفسه مقرا ومستسلما لما أبدعته قدرة الخالق في هذا الكون، فهو يتعجب مما يستطيع أن يبدعه عقل الإنسان الفنان، مع علمه بمحدودية قدرته، ورغم اقتناعه بأن الأماكن الفنية وهمية، إلا أنه يقبل بها، و لعل ذلك يعود إلى مهمة الفن، "ففي الفن وحده ينشأ تواطؤ ضمني بين الفنان والمتلقي على القبول بإيهامية المادة الفنية وإيهامية أمكنتها(صلاح،1980،ص17)" ، ولذلك ونحن نعيش في الأماكن الخيالية بأحداثها و شخوصها التي تنقلها "شهرزاد" في "ألف ليلة و ليلة "، التي "تميل إلى اصطناع الحيز المستحيل و الحيز البعيد الذي لم يره أحد قط، كجبل قاف العجيب الذي نجده يتردد في هذه الحكاية عدة مرات (مرتاض ، ،1995،

صفحة 114)، فهذه الأماكن بعيدة عن الواقع، ما في ذلك شك، ومع ذلك نواصل تقبلنا لها، وتفاعلنا معها في إطار ذلك التواطؤ الذي أحدثه الفن بين المتلقى والمبدع.

قد لا يحيلنا الأديب على ما يحيط بالمكان الذي تنطلق أو تقع فيه الأحداث، وليس ملزما أن يفعل ذلك حتى لا يفقد العمل فنيته، ويسقط في التقريرية، أو تصوير الواقع تصويرا مباشرا، وكأن المتلقي يشارك هو الآخر في تصور هذه الأماكن المجاورة مما يعمق الشعور والإحساس والتفاعل معها، وكأن لا فرق بينها وبين الأماكن الواقعية.

إذا كان المتلقي رقما له مكانته في العمل الإبداعي، فأي متلق قادر على الإحساس والشعور بأنه في مكان جغرافي يكاد لا يختلف عن المكان الفني؟ وأي مكان يمكنه فعل ذلك في الملتقى؟. إن كان المتلقي يمتلك خبرة القراءة، والتفاعل مع النصوص، فالمكان الفني هو الذي لا تعنيه إلا تلك الخبرة، فيمكن أن "يمنحه إمكانية رؤية مالا يمكن أن يراه، و أن يسمع كل الأصوات التي تعاقبت على سكانه ... و أن يحس بحق أنه في مكان له صلة بروحه و تاريخه وتكوينه الاجتماعي(لشقر، 2006، ص32)" ، فالروح، والتاريخ، والتكوين الاجتماعي تهيئ الأرضية للمكان الفني حتى ينجذب المتلقي نحوه، فهو مكان لعب الخيال دورا كبيرا في تكوينه، رغم صلته الوثيقة بالمكان الواقعي من حيث الخصائص التي اعتمد المبدع فيها على عنصر الخيال الذي يناسب الجنس الأدبي.

يتعدى المكان دوره الأول كونه مكانا تقع فيه الأحداث إلى مكان قابل لبنية العمل الفني، ويؤثر فيه من خلال رؤية الإنسان إليه، فالمكان الهندسي الحقيقي ليس له من الفن شيء، ولعل ذلك أساس التباين بين المكان الفني والمكان الواقعي؛ فالأول يبرز من خلال رؤية المبدع ، والحوادث ، والشخصيات وأفكارها، كل ذلك في علاقة تأثير وتأثر متبادلة .

### 3.المكان واللغة:

يعد المكان الفني صنيع اللغة للتخييل القصصي، "لأن الفضاء الروائي مثل المكونات الأخرى للسرد، لا يوجد إلا من خلال اللغة، فهو فضاء لفظي بامتياز (أحمد ، 1998، ط1، صفحة 105)" ، هكذا تصبح اللغة أداة بناء الأمكنة الفنية، وتحديد ملامحها، فإن كانت اللغة قوامها الكلمات، فالمكان يغدو حاملا مشاعر وأحاسيس وأفكار يزخر بها، وليس في مقدور أي عنصر من عناصر السرد أن يعبر عنها سوى اللغة. وقد أشار بنيامين وورف(1897/04/24-1944/07/26) إلى العلاقة الوطيدة بين اللغة والمكان قائلا:" إن الناس لا يعيشون فقط فى نطاق الأشياء التي تحيط بهم وفى نطاق عالم الحياة الاجتماعية بل يعيشون في نطاق عالم لغة الأم.

إننا نبني العالم الذي يحيط بنا وفق '' عالم اللغة''. وكل لغة، على حد تعبيره هو، تتضمن بالإضافة إلى مفرداتها وجهات نظر وأحكام مسبقة ضد وجهات نظر أخرى" (كندراتوف، الأصوات والإشارات، ترجمة: شوقي جلال، 1972، ط1، صفحة 66)، وهذا ما يؤكد أن الأداء اللغوي عماد تشكيل المكان.

يمكن أن تتعدد الأماكن في النص الإبداعي مما يجعل اللغة تتعدد هي الأخرى، فكل مكان له سكانه الذين يتميزون بلغتهم عن غيرهم، ما لم يتدخل الراوي، لذلك نجد "في بعض النصوص الحكائية تنوعت الصيغ اللغوية لأسباب عدة، منها تنوع الأماكن(مرشد، 1998،ص108) "، ولعل للأماكن تأثير في تكوين لغة الإنسان لتتوافق وهذه الأمكنة، كما تشير إلى مهنة المتحدث وترتبط بمكانه الذي يتحدث فيه .

يتوسل الأديب باللغة لرسم الأمكنة، ولعل "اللغة السبيل الأبرز، إن لم يكن الوحيد الذي اعتمده الروائيون في بناء أمكنتهم وفي وصفها أيضا(صلاح،1980، ص158)" ، ورغم تعدد مستوياتها، فالأديب يستعملها ليجلي البيئة، وتظهر بوضوح، سواء وظفت العبارات الفصيحة أو العامية، فالمكان يبقى تحت سيطرة اللغة، هي التي تحكمه، و" ترسم ملامحه، وتشكل هيئتها لوصف الدقيق(مرتاض، 1998، ص158 )" ، وهي ألصق به، لما لها من القدرة والقوة ما يمكنها من تشكيله وتحديده، وهذا ما أكده جون فيسنجربر عندما قال: " لم يوجد إلا بقوة اللغة ( نجمي، ط1، 1995، صفحة 40)" فليس على المبدع أن يذكر المكان، مدينة كانت، أم قرية، أو يعين مكانا، أو شارعا، أو فندقا، حتى يقال إن عمله قد توافرت فيه الشروط، إذ يمكن الاهتداء إلى ذلك عن طريق الوصف أو صيرورة الحدث.

**4. المكان و الشخصية :**

لم يعد خافيا تأثير المكان في الشخصية، فهل تؤثر الشخصية في المكان؟ فمن غير المنطقي أن يؤثر الجامد في الحي، ولا يؤثر الحي في الجامد؛ "فالإنسان هو الذي يمنح المكان قيمته و ربما وجوده(صلاح،1980، ص62) "، فلولا الإنسان لما عرفت بقاع أو أصقاع، و لبقيت بكرا، فبفعل الإنسان تغيرت ملامح الأمكنة بدءا من البيت حتى خارجه، وقلما نجد مكانا يخلو من أثر الإنسان و فعله.

ويعد البيت أول الأمكنة التي تعلق بها الإنسان، يرى فيه غاستون باشلار: "البيت جسد و روح ، و هو عالم الإنسان الأول(باشلار، 1996، ص38)" ، لذلك كان البيت من بين الأمكنة التي تعكس أحد جوانب حياة الشخصية، وبعض ملامحها النفسية، كما أن الإنسان قد أفرغ عليه واصطبغه بصبغة وجوده ليغدو ذا قيمة جمالية و فكرية. فقد "يتمكن القارئ أحيانا من إدراك ملامح المكان من خلال الأشخاص المتحركين فوقه(صلاح،

1980، ص62)" ، ومن خلال حوار الشخصيات، و حركاتها، وكيف تعبر عن أفكارها، يمكن أن ندرك أن الأحداث تدور في بيئة صحراوية أو بدوية، أو ساحلية؛ فتعبيرها عن ضيقها وضجرها من الحرارة والغبار، لهو إشارة إلى مكان صحراوي، ولنقل مثل ذلك فيما يتعلق بمكان ساحلي، حيث النسيم الذي يبعثه البحر .

يمكن أن نقول: إن علاقة المكان بالشخصية علاقة وجود، ففي نظر سيزا قاسم أن هذه العلاقة دخلت "مرحلة جديدة، أصبح المكان شرطا للوجود ذاته، وعاملا من عوامل بين الشخصية وتحديد استجاباته(صلاح، 1980، ص26)"، فإن لم يوجد المكان، فأين تعرض الشخصيات خبايا نفسها؛ إذ لا يمكن للشخصية أن تتملص أو تخرج عن سيطرته، وقد يكون ذلك ما دفع بعض المبدعين إلى "أن يدخل الطبيعة في حسابه عاملا مؤثرا في الحوادث والشخصيات" (محمد يوسف نجم، (د.ت)، صفحة 111)"، ولذلك يلجأ إلى المكان بمختلف تأثيراته لتقييم الشخصية، وسبر أغوارها النفسية، أو إماطة اللثام عن هويتها الثقافية، وما ينتج عنها من سلوكات .

لا يمكن نكران ما للمكان، أو البيئة من تأثير على أهلها، غير أن هذا لا يعني موافقة أصحاب نظرية البيئة، كما تشير إليه آراء اليونانيين في هذا الشأن في مثل قولهم: "وسنجد في غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشريين يتغيران وفقا لطبيعة البلد (آمنة تشيكو، (د. ت)، صفحة 34)" ، وقد اثبت الواقع أنه لا يمكن اتخاذها قاعدة عامة، ما لم تثبت علميا. فان كان المبدع يتكأ على المكان، فذلك ظنا منه أن البيئات قد تصور على أنها تعبيرات مجازية عن الشخصية، فبيت الإنسان امتداد لنفسه، فالمبدع يعمد إلى التأكيد على إحساس القارئ بالمكان، فيتخذ من ذلك وسيلة لتصوير الشخصية لما لها من ارتباط بالمكان الذي يغدو دالا على هويتها، إن لم نقل هو هويته، كما يرى ذلك محمد بدوي في معرض حديثه عن علاقة المكان بالشخصيات في كتابه "أسطرة المكان": "نلاحظ أن علاقتهم علاقة هوية، فهم يتحددون من خلاله"(صلاح، 1980، ص133)" ، فهل يمكن أن ننكر تأثير المكان –المدينة مثلا– في بعض ساكنيها، كإفساد طبائعهم وعلاقتهم بعضهم ببعض، حيث النصب والاحتيال... على عكس ساكني القرى التي طبعت شخصيات أهلها بالوفاء، وحفظ الأمانة وغيرها. كما أن ساكن القرية إذا ما غادرها ليستقر في المدينة، فلن يدخر هذا المكان (المدينة) جهدا في ترويضه والتاثير في طبعه، وكلما غير الإنسان المكان إلا وتغير مزاجه وتغيرت أخلاقه وسلوكاته. ولا يعني هذا، أن تأثير القرية ليس سلبيا في الشخصية، فكثيرا ما تكون الرتابة ووحشة المكان الذي يحد من حركية الإنسان سببا في الفرار نحو المدن، كما صور ذلك عبد الحميد بن هدوقه في "ريح الجنوب".

### 5. المكان والزمان:

لا يمكن أن تتصور مكانا بدون زمان، وإن كانا يختلفان في الاعتماد على تقنيات مختلفة؛ فالمكان يتكأ على الوصف، بينما يتكأ الزمان على السرد، وأساس ذلك كله اللغة التي يشكل بها الأديب عالمه الخاص به، سواء أماثل الواقع –وهذا ليس من الفن في شيء– أم خالفه، ليشكل عالمه الفني معتمدا في ذلك على الإيحاء والتلميح، متجنبا التصريح.

إن العمل الأدبي لا يستقيم بناؤه إلا بتحقيق طرفي المكان والزمان، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالواقع، كما أن رسم الشخصيات لا تتحدد معالمها إلا في داخل هذا الإطار (المكان والزمان)، الذي يمثل خطين متقاطعين، فالأول يمثل الخط الأفقي الذي تقع فيه الأحداث، بينما يمثل الزمان الخط العمودي الذي تعبر من خلاله أجزاء العمل الأدبي.

فما العلاقة بينهما؟ وما حال أحدهما دون الآخر، وهل يمكن أن تقوم للعمل الأدبي قائمة دون أحدهما.

من الصعب أن نمسك بالزمن، رغم أننا ندركه بعقولنا فهو محسوس غير مدرك، وهو متصل بالمكان وبالحركة التي لها فضل في إدراك الزمن، ولعل الزمن تابع للحركة، وهي سبب إنتاجه، وهي بأي حال من الأحوال، لا يمكن أن تقع إلا في المكان، وإن كانت الحركة تخالف الزمن في أنها تعرف السرعة والبطء، خلافا للزمن الذي لا يعرف ذلك، بل يعرف الطول والقصر.

وتكمن أهمية الزمان في كونه أحد العناصر الأساسية في بناء الحضارة، فالأمم الراقية في سباق مع الزمان، وتحاول السيطرة عليه، ولعل ذلك سر تخلفنا، فإن كانت هذه الأمم في سباق مع الزمان، فذلك نابع من إدراكها لأثره في حياتها ومصيرها التي لا يمكن إثباتها إلا فيه، لأن "الإنسان أكثر إحساسا بوجوده، وأكثر ارتباطا بعوامله وتحولاته، وبالتالي أكثر قلقا وخوفا من محدوديته ووجوده فيه"(صلاح، 1980، ص117)، على عكس المكان المرتبط بوجود الإنسان.

ومهما حاول الإنسان –في صراعه– أن يحكم سيطرته على الزمان، فلن يتأتى له ذلك، لتميزه بالحركة والتغيير على خلاف المكان الذي يتميز بالثبات والسكون. فهل يمكن أن يتوقف الزمان ليسمح للمكان بالحركة؟. قد لا يتسنى ذلك إلا للمبدع، عندما يصوب اهتمامه بالمكان، فيمعن في تحديده، ورسم معالمه، ويتغاضى عن الزمن، فيبدو وكأنه لا يبرح مكانه نتيجة تأزم أو قلق نفسي، وكأن عقارب الساعة ثابتة لا تتحرك، وقد عبر عن ذلك امرؤ القيس في قوله:

**فيالك من ليلٍ كأن نجومَه بكلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّت بِيَذْبُلِ**(امرؤ القيس، 1994، صفحة 81)

فإن كان القلق النفسي يدفع إلى الشعور بثبات الزمان، وعدم حركيته، لمَ لا يكون ذلك سببا في الإحساس بثبات المكان، وهذا ما يراه صلاح صالح في قوله: "والتنويه مفيد إلى أن الإحساس النفسي بتوقف الزمن قد يكون بالأصل ناجما عن إحساس مماثل بالمكان"(صلاح، 1980، ص121) ، وإن كان الثبات من خصوصيته.

**6. التأثير المتبادل بين المكان والزمان:**

إن وجود كل منهما مرتبط بالآخر، فلا يمكن أن نجد أحدهما دون الآخر، وليس من السهل فصل أحدهما عن الآخر، فكل منهما يؤثر في الآخر، ويلبس لبوسه، ويتمظهر به، مما يضفي عليه جمالية، فالغروب في مناطق معينة، حيث يتهافت الناس لرؤيته، فجماليته ناجمة عن الزمان، فلولا الزمان لما كان للمكان كل هذه الجمالية التي تسحر القلوب والعقول؛ "فقد أكثر الروائيون من وصف مراحله...إضافة إلى ما يطرحه وقت الغروب من أحاسيس نفسية مختلفة"(صلاح، 1980، ص130) ، ولعل هذا التأثير لا يبتعد عما رآه ميشال بوتور عندما قال: "الزمن ليس إلا صورا منضدة للأمكنة"(نجمي، 1995، ص48). وكما فعل الزمان بالمكان، لم يفلت الزمان من تأثير المكان، فالصحاري تعج بعنصر الزمان، فالأهرامات –مثلا– وهي من عجائب الدنيا السبع، والتي أنجزت في زمن الفراعنة، إذ مازال الزمان يفرض نفسه على المكان، ويأسر الزائر وهو يستمع إلى شروحات الدليل هناك.

ويمكن الوقوف على تأثير المكان في الزمان، من خلال محطة تاريخية فردية، إذ يصبح المكان ذا تأثير نفسي نتيجة ما عاشته الشخصية من أحداث في ذلك المكان، فكلما حللنا ذلك المكان إلا واستحضرنا نفسيا تلك الأحداث والمشاهد. ويمكن القول إن الفرد أخضع المكان بالزمان الذي وقعت الأحداث فيه، وكما يكون ذلك على مستوى الفرد، ليصبح المكان سمة الفرد تربطه بذكريات في زمان ما، فإن الجماعة هي الأخرى، تفعل ذلك بما تركته من آثار عبر تاريخها، كآثار المايا في أمريكا والعرب في الأندلس. هكذا يصبح تاريخ هذه الأمم، وما بقي من آثارها علامة تميز المكان.

**7.خاتمة:**

لعل أهمية المكان تتجلى من خلال قراءة وفهم كل حدث وتفاعل الشخصيات وحركيتهم مع المكان فهو المفعِّل للعمل الادبي والفني بوظيفته الجمالية. فالمكان المؤثر في المتلقي من صنع الخيال والمسيطر عليه بعد أن تحرر من سيطرة الأبعاد الهندسية، وهو الذي يفتح فكر المبدع وحتى القارئ لتخيل الأمكنة والإيهامبها وكأنها حقيقية وواقعية . هذا سر لذة المكان الفني الجمالية وتأثيره، إذ هناك علاقة تربط بين المكان الفني والواقعي والإنسان، وبقية عناصر السرد يحددها الراوي المبدع و القارئ على حد سواء.

**8. قائمة المراجع:**

1. (القرآن الكريم سور ة الواقعة ،الآية 27-44).
2. امرؤ القيس. (الديوان ، شرح أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري،1994). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
3. آمنة تشيكو،مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، (د. ث) ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
4. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي ، 1990، بيروت /الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
5. حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية. الدار البيضاء- بيروت ط1، 1995: المركز الثقافي العربي.
6. حسن، لشقر . (فكرة المكان وتطور النظرة إليها في الفكر الإنساني العربي والغربي،2006). مجلة عَمّان الثقافية،، العدد:129.
7. صلاح صالح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر،. القاهرة،1980، ط1: دار شرقيات للنشر والتوزيع.
8. عبد المالك مرتاض،نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد (المجلد العدد: 240)، ديسمبر1998،الكويت: عالم المعرفة.
9. عبد المالك مرتاض . (ألف ليلة وليلة(تحليل سيميائي لحكاية حمال "بغداد"،1995). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
10. عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد (المجلد العدد: 240). 1998 الكويت: عالم المعرفة.
11. غاستون باشلار. (جماليات المكان ، ترجمة: غالب هلسا،ط1 ، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع،1992 ).
12. كندراتوف. (الأصوات والإشارات، ترجمة: شوقي جلال، القاهرة،: الهيئة العامة للكتاب.، 1972، ط1).
13. محمد السيد إسماعيل،(بناء فضاء المكان في القصة العربية المعاصرة،الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام ،2002، ط1).
14. محمد يوسف نجم. (ف فن القصة. ، بيروت: دار الثقافة، (د.ت).
15. مرشد أحمد . (المكان والمنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف . حلب: دار القلم العربي.، 1998، ط1).